وحى القبور

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

ذهبتُ فى صُبح يوم عيد الفطر أحملُ نفسى بنفسى إلى المَقْبرة ، وقد مات لى من الخواطر مَوْتَى لا مَيِّتٌ واحد ؛ فكنتُ أمشى وفىَّ جِنَازَةٌ بمُشَيِّعيها من فكرٍ يحملُ فكراً ، وخاطرٍ يتبعُ خاطراً ، ومعنىً يَبكى ومعنىً يُبكى عليه ؛ وكذلك دأبى كلما انحدرتَ فى هذه الطريق إلى ذلك المكان الذى تأتيه العيونُ بدموعها ، وتمشى إليه النفوسُ بأحزانها ، وتجىءُ فيه القلوبُ إلى بقاياها . تلك المقابرُ التى لا يُنَادَى أهلُها مِن أهليهم بالأسماء ولا بالألقاب ولكن بهذا النداء : يا أحبابَنا ؛ يا أحزانَنا

ذهبتُ أزور أمواتى الأعزاء وأتصلُ منهم بأطراف نفسى لأحيا معهم فى الموت ساعةً أعرِضُ فيها أمرَ الدنيا على أمر الآخرة ، فأنسى وأذكر ، ثم أنظرُ وأعتبر ، ثم أتعرَّف وأتوسّم ، ثم أستَبْطِنُ مما فى بطن الأرض ، وأستَظْهِرُ مما على ظهرها ؛ وجلستُ هناك أُشرِفُ من دهرٍ على دهر ومن دنيا على دنيا ، وأخرجتِ الذاكرةُ أفراحها القديمةَ لتجعلَها مادةً جديدةً لأحزانها ؛ وانفتح لى الزمنُ الماضى فرأيتُ رَجْعَةَ الأمس ، وكأن دهراً كاملاً خُلق بحوادثه وأيامه ورُفع لعينىَّ كما تُرفَع الصورةُ المعلقةُ فى إطارها

أعرف أنهم ماتوا ، ولكنى لم أشعر قطّ إلا أنهم غابوا ؛ والحبيبُ الغائبُ لا يتغيّرُ عليه الزمانُ ولا المكانُ فى القلب الذى يحبه مهما تَراخَتْ به الأيام ؛ وهذه هى بقية الروح إذا امتزجت بالحب فى روح أخرى ، تترك فيها مالا يُمحَى لأنها هى خالدة لا تُمحَى

ذهب الأمواتُ ذَهَابَهم ولم يقيموا فى الدنيا ؛ ومعنى ذلك أنهم مرُّوا بالدنيا ليس غير ، فهذه هى الحياة حين تعبِّر عنها النفسُ بلسانها لا بلسان حاجتها وحرصها

الحياة مدةُ عمل ، وكأن هذه الدنيا بكل ما فيها من المتناقضات إنما هى إلا مَصْنَعٌ يُستَوْغَ كلُّ إنسانٍ جانباً منه ، ثم يقال له : هذه هى الأداة فاصنع ما شئتَ ، فضيلتك أو رذيلتك

* * *

جلستُ فى المقبرة ، وأطرقتُ أفكر فى هذا الموت . يا عجباً للناس كيف لا يستشعرونه وهو يهدمُ من كل حىّ أجزاءً تحيط به قبل أن يهدمَه هو بجملته ، وما زال كلُّ بُنْيانٍ من الناس به كالحائط المُسَلَّطِ عليه خرابُه يَتَأَكَّل من هنا ويتناثرُ من هناك

يا عجباً للناس عجباً لا ينتهى ، كيف يجعلون الحياةَ مدةَ نزاع وهى مدةُ عمل ؛ وكيف لا تبرحُ تَنْزُو النوازى بهم فى الخلاف والباطل ، وهم كلما تَدَافَعوا بينهم قضيةً من النزاع فضربوا خَصْماً بخصم وردّوا كَيْداً بكيد ، جاء حكمُ الموت تكذيباً قاطعاً لكل من يقول لشىءٍ هذا لى

أما والله إنه ليس أعجبُ فى السخرية بهذه الدنيا من أن يُعطَى الناسُ ما يملكونه فيها لأثبات أن أحداً منهم لا يملك منها شيئاً ، إذ يأتى الآتى إليها لحماً وعظماً ولا يرجع عنها الراجعُ إلا لحماً وعظماً ، وبينهما سفاهةُ العظم واللحم حتى على السِّكِّين القاطعة . . .

تأتى الأيامُ وهى فى الحقيقة تَفِرُّ فِرارَها ؛ فمن جاء من عمره عشرون سنةً فإنما مضت هذه العشرون من عمره . ولقد كان ينبغى أن تُصَحِّحَ أعمالُ الحياة فى الناس على هذا الأصل البَيِّن ، لولا الطباعُ المدخولةُ والنفوسُ الغافلةُ والعقولُ الضعيفةُ والشهواتُ العارمة ؛ فانه ما دام العمرُ مُقْبِلاً مُدْبِراً فى اعتبار واحد ، فليس للانسان أن يتناولَ من الدنيا إلا ما يُرضيه محسوباً له ومحسوباً عليه فى وقتٍ معاً . وتكونُ الحياةُ فى حقيقتها ليست شيئاً إلا أن يكون الضميرُ الانسانىُّ هو الحىَّ فى الحى

* * *

وما هى هذه القبور ؟ لقد رجعتُ عند أكثر الناس مع المَوْتَى أبنيةً ميتة ؛ فما قطُّ رأوها موجودةً إلا ليَنسَوْا أنها موجودة . ولولا ذلك من أمرهم لكان للقبر معناه الحىُّ المُتَغَلْغِلُ

فى الحياة إلى بعيد ؛ فما القبرُ إلا بناءٌ قائمٌ لفكرة النهاية والانقطاع ؛ وهو فى الطَّرف الآخر رَدٌّ على البيت الذى هو بناءٌ قائم لفكرة البَدء والاستمرار ؛ وبين الطَّرفين المَعْبَدُ وهو بناءٌ لفكرة الضمير الذى يحيا فى البيت وفى القبر ، فهو على الحياة والموت كالقاضى بين خصمين يُصْلح بينهما صُلحاً أو يقضى

القبرُ كلمةُ الصـــدق مبنيةً متجسِّمةً ، فكل ما حولها يَتَكَذَّبُ ويتأوَّل ، وليس فيها هى إلا معناها لا يَدْخُلُه كذبٌ ولا يعتريه تأويل . وإذا ماتت فى الأحياء كلمةُ الموت من غرورٍ أو باطلٍ أو غفلةٍ أو أثرة ، بقى القبرُ مُذَكِّراً بالكلمة شارحاً لها بأظهر معانيها داعياً إلى الاعتبار بمدلولها ، مبيِّناً بما ينطوى عليه أن الأمر كلَّه للنهاية

القبر كلمةُ الأرض لمن ينخدعُ فيرى العمر الماضى كأنه غيرُ ماضٍ ، فيعملُ فى إفراغ حيانه من الحياة[1] بما يملؤها من رذائله وخبائثه ، فلا يزال دائباً فى معانى الأرض واستجماعها والاستمتاع بها ، يتلو فى ذلك تَلْوَ الحيوانِ ويقتاسُ به فشريعتُه جَوْفُه وأعضاؤه . وترجعُ بذلك حيوانيتُه مع نفسه الروحانية ، كالحمار الذى يملكُه ويعلفُه ، لو سئل الحمارُ عن صاحبه من هو ؟ لقال : هو حمارى . . . . . .

القبرُ على الأرض كلمةٌ مكتوبةٌ فى الأرض إلى آخر الدنيا معناها أن الانسان فى قانون نهايته فلينظر كيف ينتهى

* * *

إذا كان الأمر كله للنهاية ، وكان الاعتبارُ بها والجزاءُ عليها ، فالحياةُ هى الحياةُ على طريقة السلامة لا غيرها . طريقة إكراه الحيوان الانسانىّ على ممارسة الأخلاقية الاجتماعية ، وجعلها أصلاً فى طباعه ، ووزن أعماله بنتائجها التى تنتهى بها ، إذ كانت روحانيتُه فى النهايات لا فى بداياتها

فى الحياة الدنيا يكون الانسانُ ذاتاً تعملُ أعمالَها ؛ فاذا انتهت الحياةُ انقلبت أعمالُ الانسان ذاتاً يخلُدُ هو فيها ؛ فهو من الخير خالدٌ فى الخير ومن الشر هو خالد فى الشر ؛ فكأن الموت إنْ هو إلا ميلادٌ للروح من أعمالها ؛ تولد مرتين آتيةً وراجعة

(١) أى من انسانية الحياة

وإذا كان الأمر للنهاية فقد وجب أن تبطلَ من الحياة نهاياتٌ كثيرة فلا يُترك الشرُّ يمضى إلى نهايته بل يُحْسم فى بدئه ويُقتل فى أول أنفاسه ؛ وكذلك الشأنُ فى كل ما لا يحسن أن يبدأ ، فانه لا يجوز أن يمتدَّ كالعداوة والبغضاء ، والبخل والأثرة ، والكبرياء والغرور ، والخداع والكذب ؛ وما شابَكَ هـذه أو شابَهها ، فانها كلها انبعاثٌ من الوجود الحيوانىّ وانفجارٌ من طبيعته ؛ ويجب أن يكون لكل منها فى الارادة قبرٌ كى تسلَمَ للنفس الطيبة إنسانيتُها إلى النهاية

* * *

يامن لهم فى القبور أموات !

إن رؤية القبر زيادة فى الشعور بقيمة الحياة ، فيجب أن يكون معنى القبر من معانى السلام العقلى فى هذه الدنيا

القبر فمٌ ينادى : أسرعوا أسرعوا فهى مدة لو صُرفت كلها فى الخير ما وَفَتْ به ؛ فكيف يضيع منها ضياعٌ فى الشر أو الأثم ؟ لو وُلد الانسان ومشى وأيفَعَ وشبَّ واكتهلَ وهَرِمَ فى يوم واحد ، فما عساه كان يُضيع من هذا اليوم الواحد ؟ إن أطول الأعمار لا يراه صاحبه فى ساعة موته إلا أقصرَ من يوم

ينادى القبر : أصلحوا عيوبكم ، وعليكم وقتٌ لاصلاحها . فانها إن جاءت إلى هنا كما هى بقيت كما هى إلى الأبد ، وتركها الوقت وهرب

هنا قبر ، وهناك قبر ، وهنالك القبر أيضاً . فليس ينظر فى هذا عاقلٌ إلا كان نظره كأنه حكمٌ محكمةٍ على هـذه الحياة كيف تبنى وكيف تكون

فى القبر معنى إلغاء الزمان ، فمن يفهم هذا استطاع أن ينتصر على أيامه وأن يُسقِطَ منها أوقات الشر والاثم ، وأن يُميتَ فى نفسه خواطر السوء ؛ فمن معانى القبر ينشأ للارادة عقلُها القوىُّ الثابت ؛ وكل الأيام المكروهة لا تجد لها مكاناً فى زمن هذا العقل كما لا يجد الليل محلاً فى ساعات الشمس

ثلاثةُ أرواح لا تصلح روحُ الانسان فى الأرض إلا بها :

روحُ الطبيعة فى جمالها ، وروحُ المجد فى طهارته ، وروحُ القبر فى موعظته ؟

طنطا